شرح

العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

شرحها

الشيخ/ توفيق الصائغ

الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلوات الله وتسليماته وتبريكاته على الرسول الأمين؛ سيدنا ونبينا وقدوتنا محمدٍ، وعلى آله وصحابته وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد ...

كنا قد وقفنا عند كلام شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- في بيان النصوص التي تدل على صفات المولى -جل وعلا- من القرآن، ومضى بنا الكلام في سرد الآيات، وتوقفنا عند بيان هذه الآيات والصفات الدالة عليها، ثم بعد ذلك انتقل -رحمه الله تعالى- لبيان السنة، وأنها تفسر القرآن وتوضحه، ولا تعارضه، وأن النبي -عليه الصلاة والسلام- أوتي القرآن ومثله معه، وأن أمهات المؤمنين خوطبن بأن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وأن الحكمة هي السنة، ثم بعد هذه المقدمة التي بين فيها مكانة السنة، وأنها شارحة ومفسرة وموضحة للقرآن؛ ذكر أيضًا جملةً من النصوص النبوية التي تدل على بعض الصفات؛ مثل قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**»؛ دلالةً على النزول، وصفة النزول، وقوله: «**لله أشد فرحًا**»؛ دلالةً على صفة الفرح، وقوله: «**يضحك ربنا**»؛ لبيان صفة الضحك، و«**عجب ربنا من قنوط عباده**»؛ لبيان صفة العجب، إلى غير ذلك من النصوص التي أوردها، والتي مررنا عليها.

ثم قال -رحمه الله تعالى-: (**إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- عَن رَّبِهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ**)، يعني: يؤمنون بالصفات الواردة في السنة كما يؤمنون بالصفات الواردة في الكتاب العزيز.

قال: بنفس المحترزات (**مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ**)، إذًا هو أصّل للقاعدة في البدء، وأصّل لها في التوسط، وأصّل لها في الختام، فلُبُّ هذه العقيدة مبني على بيان توحيد الأسماء والصفات، وأن الله -سبحانه وتعالى- يُثبَت له ما أثبته لنفسه من الصفات، وما أثبته له نبيه -صلى الله عليه وسلم- في صحيح السنة، مع اعتقاد خلوها من هذه المحترزات المهمة: التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل.

ثم دخل إلى موضوع آخر، وهو مقصد من مقاصد بيان هذه العقيدة، قال: (**بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ**)، إذًا الإمام -رحمه الله تعالى- هنا ينتقل لبيان وسطية هذه الأمة، ووسطية هذه الأمة وسطية تامة كاملة، شامّة، ذات أوجه متعددة، فالأمة وسط في التاريخ، ووسط في الجغرافيا، ووسط في المعتقدات، ووسط في المناهج، ووسط في قضايا الاعتقاد التي سيذكرها -رحمه الله تعالى-، إذًا الأمة وسط في فرق

الأمم، وهي وسط بين الأمم، أهل السنة وسط بين الفرق المنتسبة لأمة الإسلام، كما أن الأمة برمتها وسط بين الأمم.

حين نقول: وسط بين الأمم؛ يعني: وسط بين اليهود والنصارى، مثلًا الله -سبحانه وتعالى- أضل أهل الكتابين عن يوم الجمعة، فاتخذ اليهود السبت، والنصارى الأحد، وكانت الأمة هي الوسط، واختار الله لها الجمعة، كذلك الأمة وسط بين الغلو، بين الإفراط وبين التفريط، إلى غير ذلك مما سيعرض هو في بيانه -رحمه الله تعالى-.

وبدأ بهذا العرض، فقال: (**فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ**)، طبعًا هو يريد أن يتكلم عن وسطية الأمة من جهات كثيرة، لكن تكلم إجمالًا عن وسطية الأمة، ثم ركّز على ما هو بصدده -رحمه الله تعالى-، فإن هذه العقيدة مبنية على باب الاعتقاد، واحد، وأخص أبواب الاعتقاد باب الاعتقاد في أسماء الله وصفاته، قال: فأهل السنة وسط بين طائفتين اثنتين، بين طائفة يمثلون الله -سبحانه وتعالى- ويشبهونه بخلقه، وطائفة أخرى تعطل الله -تعالى- عن صفاته، المعطل ينفي صفات الإلهية، إما برمتها جملةً وتفصيلًا، وإما يثبت بعضًا وينكر البعض الآخر، هؤلاء طرف، وآخرون يشبهون الله -تعالى-، فعندهم السمع كالسمع والبصر كالبصر، هذا أيضًا طرف، فجاء أهل السنة ليكونوا وسطًا بين هؤلاء جميعًا، فليس أهل السنة بمعطلة يعطلون الله عن صفاته، وليسوا بمشبهة يشبهونه بخلقه، فهم إذًا لما كانوا في الضفة الوسط كانوا يثبتون لله الصفات إثباتًا لا تمثيل فيه، وينزهونه عن مشابهة خلقه تنزيهًا لا تعطيل فيه، جمعوا إذًا بين الإثبات الذي لا تمثيل فيه، وبين التنزيه الذي لا تعطيل فيه، فهم وسط بين فرق الأمة في باب الصفات، بين أهل التعطيل الجهمية من جهة، وبين أهل التمثيل المشبهة من جهة أخرى، فجاء مذهبهم وسطًا بين ذلك، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾[البقرة:١٤٣].

وهم وسط في باب أفعال الله بين القدرية والجبرية.

من هم القدرية؟ ومن هم الجبرية؟

الجبرية: هم الذين زعموا أن أفعال العباد ليس للعباد فيها اختيار، وأن الفاعل لأفعال العباد على الحقيقة هو الله -سبحانه وتعالى-.

كيف العبد يأكل ويشرب، ويؤمن ويكفر، ثم نقول: إن الفاعل هو الله؟

قالوا: إضافة هذه الأفعال إلى العباد إضافة مجازية، زيد يأكل؟ لا، الفاعل هو الله، والفعل أضيف إلى زيد مجازًا، هكذا يقولون، وهذا مذهب باطل، فساد بطلانه يغني عن إفساده.

وأما القدرية: فعلى العكس، يقولون: إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله ولا تحت قدره.

من الذي يفعل هذه الأفعال؟

قالوا: إن الله لم يُرِدها ولم يشأها، وهم الذين أرادوها وشاءوها، فيلزم من كلامهم أنه يقع في ملك الله شيء لم يرده الله –تعالى–.

معادلة عجيبة! الجبرية يقولون: إن أفعال العباد هي أفعال الله، والعباد ليس لهم دخل فيها. القدرية يقولون: إن أفعال العبادِ العبادُ هم الذين يشاءونها، وهم الذين يخلقونها، والله –سبحانه وتعالى– لا دخل له فيها، ولذلك سُموا مجوس هذه الأمة، وهم الذين ورد فيهم الحديث عن النبي –عليه الصلاة والسلام–.

ما موقف أهل السنة في باب أفعال الله –تعالى–؟

أهل السنة وقفوا في الوسط، كيف الوسط هنا؟ مع أنهم أثبتوا أن العباد يفعلون أفعالًا حقيقية، وليست مجازية كما قال غيرهم، وهذه الأفعال تُنسب إلى الفاعل، الطائع نقول له: أنت طائع، والعاصي نقول له: أنت عاصٍ، وهذا على وجه الحقيقة لا على وجه المجاز.

من الذي خلق الفاعل وما يفعله؟ الله –سبحانه وتعالى–، قال الله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، فأهل السنة يثبتون للعباد أفعالهم، وأن العباد يختارون هذه الأفعال، وأنها تُنسب إليهم حقيقةً، وأنها تصدر منهم، ويثبتون أيضًا أن للعبد مشيئةً واختيارًا، لكنهم لا يجعلون هذه المشيئة والاختيار مستقلةً عن مشيئة الله –تعالى–، بل مشيئتهم واختيارهم داخلة ضمن مشيئة الله –سبحانه وتعالى–، مصداق قوله –جل وعلا–: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:٢٨-٢٩].

إذًا الجبرية قالوا: إن الله هو الذي يفعل كل شيء، العباد فقط تُنسب إليهم الأمور على شكل المجاز.

القدرية قالوا: لا، إن الفاعل هو العبد، وهو الذي يخلق فعل نفسه، والله –سبحانه وتعالى– لا دخل له في أفعال العباد.

أهل السنة توسطوا، فأثبتوا لله مشيئةً، وللعبد مشيئةً، فقالوا: إن مشيئة العبد داخلة ضمن مشيئة الله –سبحانه وتعالى–.

وعلى وجه التحقيق يتحقق بهذا أصلًا الحكمة؛ لأننا لو جعلنا الناس مجبورين على الطاعة وعلى المعصية؛ نقول: ففيم الثواب وفيم العقاب؟ إذا كان الإنسان مجبورًا على أن يكون طائعًا ومسلمًا ومؤمنًا ومتقيًا وصائمًا وقائمًا؛ ما فائدة أن يثاب على شيء لم يختره هو أصلًا؟

ولو قلنا أن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه؛ نكون قد أثبتنا للكون خالقَيْن، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، لذلك لما كان حقيقة مذهبهم إثبات فاعلَيْن في الكون؛ سُموا مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يؤمنون بإله الظلمة والنور، يعني: يؤمنون بإلهين.

قال: (**وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ**)، وجه كوننا وسطًا -معاشر أهل السنة- أننا نثبت لله مشيئة، ونثبت للعبد مشيئة، مشيئة العبد تليق به، ومشيئة الله فوق مشيئة العبد، مشيئة العبد داخلة ضمن مشيئة الله، ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾.

قال: (**وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغيْرِهِمْ**)، في باب الوعيد أيضًا أهل السنة وسط.

ماذا يقصد بقوله: باب الوعيد؟

يقصد -رحمه الله تعالى- أن النصوص الواردة في الوعيد.. يعني: مرتكب الكبيرة مثلًا الذي يقتل النفس، أو الذي يزني؛ هذه الجرائم توعد الله -سبحانه وتعالى- عليها بدخول النار، وفي بعض النصوص بالخلود في النار، فذهب قوم إلى أن فاعل الكبيرة خالد مخلد في النار، لا يخرج منها أبد الآبدين، هؤلاء هم الخوارج، وقالوا: إن وعيد الله -سبحانه وتعالى- نافذ، وذهب آخرون إلى أن الكافر لا تنفعه طاعة، يعني: الكافر لو صلى، ولو صام، ولو تصدق، ولو أنفق؛ لا تنفعه هذه الطاعات، وعليه في المقابل فإن المؤمن إذا فعل الكبائر الموبقات... إلخ، ما دام معه أصل الإيمان؛ فلن يضره شيء.

أهل السنة -رحمهم الله تعالى- توسطوا، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة على خطر، وإن أهل الكبائر يدخلون النار، لكنهم لا يخلدون فيها؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- جعل الخلود والتأبيد لمن كفر به، ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[النساء:٤٨]، ووردت النصوص أن الله -سبحانه وتعالى- يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، مثقال حبة من خردلة من إيمان، من كان في قلبه مثقال... إلخ، فالله -سبحانه وتعالى- يخرجهم بعد أن يكونوا قد تفحموا، ثم يلقى بهم في حميل السيل فينبتون من جديد، وردت بذلك النصوص، وعليه فأهل السنة وسط بين الخوارج البعيدين، وبين المرجئة، الخوارج يكفّرون بالكبيرة، والمرجئة يرون أن هذه الذنوب لا تؤثر في مسمى الإيمان.

إذًا الفرق بين الخوارج والمرجئة -معقل المشكلة بينهم- في أن الأعمال تدخل في مسمى الإيمان أو لا تدخل.

ما رأيكم؟ هل الأعمال تدخل في مسمى الإيمان؟

سأجيبك على مسألة هل الجبرية والقدرية والخوارج موجودون أو لا، لكن أسألكم الآن: هل الأعمال تدخل في مسمى الإيمان؟

الذي يقول: لا؛ ما الدليل؟

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر:١٠]؟ لا، هذا دليل على أن الله -سبحانه وتعالى- في جهة العلو.

أهل السنة عمومًا يقولون: إن الأعمال تدخل في مسمى الإيمان، بدليل قوله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[البقرة:١٤٣]، هذه الآية نزلت في تحويل القبلة، فسمى إذًا الله -سبحانه وتعالى- الصلاة إيمانًا، وما كان الله ليضيع صلاتكم المعنى، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، فتسمية الصلاة بالإيمان دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان.

وفي حديث وفد عبد القيس قال -عليه الصلاة والسلام- «**آمركم بالإيمان بالله وحده**». قال: «**هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة**». فإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أليست من الأعمال؟ بلى، لكن النبي -عليه الصلاة والسلام- أدخلها في مسمى الإيمان، بأن قال للوفد: «**آمركم بالإيمان بالله وحده**».

ويمكن أن يُستدل أيضًا بقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**». فأدخل الأعمال في مسمى الإيمان.

إذًا الخلاف بين أهل السنة وبين...

إذًا أهل السنة في باب الوعيد وسط بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم.

ثم سألت الأخت: هل الجبرية والقدرية والخوارج موجودون إلى يومنا هذا؟

نعم موجودون، الخوارج موجودون مثلًا، الإباضية موجودون في عُمان، وموجودون أيضًا في الجزائر، وفي طرف من تونس، المعتقدون بمبدأ الجبر قد لا يكونون مدرسة، ولكن موجودون، ولذلك حتى يجري أحيانًا عند عوام الناس سؤال كثيرًا ما يتردد على الأئمة وعلى المدرسين وعلى المشايخ، وهو: هل العبد مسيّر أم مخيّر؟

الجواب على هذا السؤال مبني على هذا الاعتقاد وهذه العقيدة، فأهل السنة الذين يقولون بالوسطية بين الجبرية والقدرية يجيبون بماذا؟ بأن الإنسان مسير أم مخير؟ إن قلنا: مسير؛ صرنا جبرية، وإن قلنا: مخير؛ صرنا قدرية، إذًا أهل السنة وسط بين الجبرية والقدرية، فنقول: إن الإنسان مسير ومخير، مخير فيما له فيه يد واختيار، يعني: الله -سبحانه وتعالى- هداه النجدين، وبيّن له الطريقين، فإن اختار طريق الهداية؛ فهو مخير، وإن اختار طريق الضلالة فهو مخير، لكنه مجبر ومسير في أمور تجري عليه، هل يختار الإنسان المرض؟ لا، الأمور التي تجري عليه وليست تجري منه هو فيها مجبر، يعني مسير وليس مخيراً.

هل أحد منا مخير في التحكم في نبضات قلبه؟ يعني: حركة الكبد والكلى والقلب، وجريان الدم في العروق؛ هذه تجري بدون اختيار من الإنسان، حركة الأيام، وعاديات السنين، والكوارث، والزلازل، والأمطار؛ هذه أشياء لا تجري منه، وإنما تجري عليه، فهو فيها مسير وليس مخيرًا، لكن فيما يتعلق بالطاعة، والبر، وأداء الصلوات، والعبادات، والمعتقدات؛ هو فيها مخير، وعليه نتيجة اختياره إما أن يثاب وإما أن يعاقب.

السؤال الذي ذكرته الأخت سناء مهم جدًّا، وهو أن البعض يقول: لماذا أدرس في أبواب الاعتقاد مناهج كلامية عفا عليها الدهر، وليست موجودة اليوم، الحقيقة ما من مسألة ذكرها شيخ الإسلام في أبواب الاعتقاد هنا، ورد فيها على الطوائف الضالة والمضلة إلا ولهم أذناب وبقايا، المعتزلة مثلًا ليسوا موجودين بمسمى المعتزلة اليوم، لكن موجودين باسم المدرسة العقلانية التي ترفع من شأن العقل، وتجعله حَكَمًا على المسائل الاعتقادية، وآفة المعتزلة بسبب إعمالهم العقليات في الشرعيات والأمور العقدية، فمر معنا أن من القواعد في أسماء الله وصفاته أنها تخضع للسمع، فهي توقيفية، لا مجال فيها للعقل، لا يمكن أن نُعمل العقل في شأن ليس للعقل فيه دخل ولا مجال، فالمنادون اليوم برفع قيمة العقل فوق مدرسة النقل هم الذين قصدهم شيخ الإسلام بالرد، هم من ألّف فيهم -رحمه الله تعالى- كتابًا عظيمًا، وموسوعة ضخمة جدًّا، تتكون من سبعة مجلدات، من أعظم كتب شيخ الإسلام، اسمه (درء تعارض العقل والنقل)، قرّر شيخ الإسلام في هذا الكتاب العظيم قاعدة مهمة جدًّا، وهي أن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين العقل والنقل، ولذلك قال -رحمه الله تعالى-: ((الشريعة قد تأتي بمحارات العقول، لكنها لا تأتي بمحالاة العقول))، معنى الكلام أن الشريعة قد تأتي بأمر يحار منه عقلك، يحتاج وقتًا لتتدبر وتتأمل وتفكر حتى تصل إلى الحقيقة، لكن لا يمكن أن تأتي الشريعة بقضية يمنعها العقل، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤]، ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، فالشريعة لا تأتي بما يناقض العقل، فالمدرسة العقلانية اليوم التي تنادي بإطراح الوحي وتحكيم العقل وتأليهه هي المدرسة التي ناقشها طويلًا شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-، وأظن أن هناك كتابًا في السوق اسمه (العقلانيون) للإخوة المعتزلة، يتحدث عن وجود هؤلاء، سواء من المناطقة، أو الفلاسفة، أو الذين يتلبسون لبوس الشرع، ويريدون أن يحكموا العقل، عامة الأشياء التي ناقشها شيخ الإسلام في هذا الكتاب وفي غيره -(العقيدة الحروية) و(درء تعارض العقل والنقل)- هناك من يقول بها اليوم، ووُجدت على مر الأزمان.

قال -رحمه الله تعالى-: (**وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ**)، لما تكلم على مسألة الوعيد، هذه متعلقة بمرتكب الكبيرة، وأما في باب الإيمان -وهو الذي تكلمنا عنه في هل الأعمال داخلة في مسمى الإيمان أو لا- أهل السنة وسط بين الحرورية الخوارج والمعتزلة من جهة -الخوارج والمعتزلة مدرسة،

الحرورية والمعتزلة هذه فرقة واحدة- وبين المرجئة والجهمية، هذه فرقة أخرى؛ لأن البعض يُخرج الأعمال من مسمى الإيمان، والبعض الآخر لا يدخلها، وأهل السنة وسط في ذلك.

ماذا قال الحرورية؟

قالوا: إن مرتكب الكبيرة خالد مخلد في النار، والمعتزلة قالوا: في الدنيا في منزلة بين منزلتين، وفي الآخرة قالوا: في النار.

والمرجئة قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، قياس طبعًا فاسد، هم درجات المرجئة، غلاة المرجئة يكفي عندهم مجرد المعرفة القلبية، إذا عرفت الله -سبحانه وتعالى-؛ ما يضرك ولا شيء، يعني: عندهم إبليس مؤمن كامل الإيمان، وهذا [٠٠:٣٨:١٣]، طبعًا فرق كثيرة جدًّا، المرجئة درجات، منهم من يقول: مجرد المعرفة، ومنهم من يقول: مجرد النطق... إلخ، لكنه كلام فاسد، وأهل السنة وسط فيما بينهم.

لا يزال شيخ الإسلام يتكلم عن وسطية أهل السنة والجماعة بين الطوائف المنتسبة للأمة.

قال: (**وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَ الْخَوَارِجِ**)، أي: أهل السنة وسط في باب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين الخوارج وبين الرافضة؛ لأن الخوارج كفّروا أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-، منهم من كفّرهم بالجملة، ومنهم من كفّر بعضهم، وبلغ بهم الحد أن يقاتلوا أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-، بل بلغ بهم الضلال الأكبر والأعظم أن يتجرؤوا على من شهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالجنة، فأقدموا على قتل الحبر صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، المبشّر بالجنة في مواطن كثيرة جدًّا، الذي شهد له النبي -عليه الصلاة والسلام-، فقتلوا عثمان وتسوروا عليه المحراب وهو يقرأ القرآن، بعد أن حاصروه في داره، ثم بقروا بطن زوجته، وقطعوا أصابعها، فعلوا أفاعيل منكرة جدًّا، ولم يرعووا، مع أن هؤلاء شهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالجنة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وعده حق وصدق، ولم يكتفوا بقتل عثمان، بل قتلوا عليًّا -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، وهمّوا بقتل معاوية وعمرو بن العاص، لكن معاوية وعَمْرًا سلما، وعبد الرحمن بن ملجم الخارجي مرادي نفذ إلى علي بن أبي طالب وقتله، فهؤلاء استحلوا دماء المسلمين، وليتهم استحلوا دماء المسلمين فقط، بل استحلوا دماء أخص المسلمين، وأخص المؤمنين، فقتلوا من العشرة المبشرين، وسالت دماء الصحابة الزكية، نعم يؤمنون بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، أتكلم على الخوارج وليس الرافضة، الرافضة سيأتي الكلام عنهم، فقتلوا خيرة أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-، عبد الرحمن بن ملجم مثلًا لما قتل عليًّا -رضي الله عنه وأرضاه-، وقُدّم للقتل؛ قطعوا يده اليمنى، فلم يجزع، بقي يذكر الله -تعالى-، قطعوا يده اليسرى، فلم يجزع، فلما أرادوا أن يقطعوا لسانه جزع، جهل، وصدق سيدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ يقول في صفتهم: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**». هؤلاء الخوارج من أشد الناس في الدين، وفي

العبادة، وفي قراءة القرآن، وفي كثرة الختمات، إلا أن عندهم فهمًا مغلوطًا مبناه الجهل، ولذلك لما ناظرهم ابن عباس -رضي الله عنه- في الفتنة التي حدثت رجع منهم طوائف؛ لأنه رد عليهم بمنطق الكتاب والسنة.

فالشاهد إذًا أهل السنة -رحمهم الله تعالى- في معتقدهم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسط بين الخوارج الذين كفّروا أصحاب رسول الله، ولعنوهم، ونابذوهم بالسيف، وبين الروافض الذين غلوا في بعض أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-، الشيعة الرافضة غلوا في آل البيت، وغلوا في علي بن أبي طالب، وقال أشدهم غلوًّا وقد مثل بين يدي علي -رضي الله عنه وأرضاه-، قال له: أنت أنت. قال: من أنا؟ قال: أنت الله. وهذا من أعجب الأشياء، غلوا فيه إلى حد أنهم اعتقدوا أن اللاهوت حل في الناسوت، هذه من العقائد التي أدخلها ابن سبأ على المسلمين، وهي من عقائد أهل الكتاب، يعني: النصارى مثلًا يعتقدون أن عيسى جزء منه إنسي، وجزء منه إلهي، كونه في اعتقادهم أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، فحل اللاهوت في الناسوت -يعني: هو من وجه إنسي ومن وجه إلهي- هذه عقيدة مأخوذة من أهل الكتاب، فهذا الغالي جاء إلى علي، وقال: أنت أنت. قال: من أنا؟ قال: أنت الله. قال علي بن أبي طالب:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قنبرًا

قنبر هذا غلام لعلي، أجج النار، وأخذ يحرقهم فيها -رضي الله عنه وأرضاه-، حتى نهاه ابن عباس وقال: ((لا يعذب بالنار إلا رب النار)).

إذًا أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام- أهل السنة وسط فيهم بين الروافض الغلاة وبين الخوارج الجفاة، أهل السنة يعتقدون في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم خيرة الخلق، وأن الله -تعالى- اختارهم واصطفاهم، وأن لهم الشرف برؤية النبي وصحابته، وأن الله -تعالى- رضي عن السابقين منهم واللاحقين، ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[التوبة:١٠٠]، وأن الله عدّلهم، شهد لهم بالعدالة، وابن مسعود يقول: ((إن الله نظر في قلوب الناس، فوجد خيرها وأنقاها وأتقاها وأصفاها قلب محمد -صلى الله عليه وسلم-، فاختاره للنبوة، ثم نظر في قلوب العباد من بعده، فوجد أتقاها وأنقاها وأصفاها قلوب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاختارهم لصحابته))، فنحن نعتقد فيهم المحبة، ونعتقد فيهم العدالة، ولا نرفعهم إلى حد المعصومية كما يفعل الرافضة، ولا نسف بهم كما يفعل الخوارج فنكفّر بعضهم، عياذًا بالله، وإنما نعتقد أنهم أجلة الناس، وأنهم خيرة الخلق، وأن الله اختارهم لصحبته -صلى الله عليه وسلم-، وأن فيهم العشرة المبشرين، وفيهم البدريين، وفيهم أهل الشجرة، وفيهم من شهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالجنة، وأن خطأهم مغفور، وأن اجتهادهم مرحوم، وأن ما شجر بين الأصحاب في [٠٠:٤٨:٣٩] الفتن فارتفعت به السيوف، كما حدث بين علي وطلحة وغيرهم؛ أن ذلك شأن يغفره الله -سبحانه وتعالى-، وأن قاتلهم ومقتولهم في الجنة.

دع ما جرى بين الصحابة في الوغى بسيوفهم يوم التقى الجمعان
فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم وكلاهما في الحشر مرحومان

فأهل السنة إذًا وسط بين الجفاة وبين الغلاة.

قال -رحمه الله-: (وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَن رَّسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ).

هنا عاد لما كان قد قرره من أن الإيمان بالله يدخل فيه الإيمان بما تواتر عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأجمع عليه سلف الأمة من أن الله -سبحانه وتعالى- فوق سماواته، مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله، وأنه له العلو المطلق -سبحانه-، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ثلاثة أشياء، وأنه -سبحانه- معهم، مع كونه عليًّا -سبحانه وتعالى-، إلا أنه قريب من الخلق، وهو معهم، يعلم ما هم فاعلون، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾[الحديد:٤]، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو معهم، لا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، فهو معهم بعلمه وإحاطته، وهو معهم -مع الصالحين منهم- بعنايته ورعايته وتأييده وحفظه -جل وعلا-.

ثم أخذ يقرر قضية، وهي أنه: (لَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ)، فهو في جهة العلو -سبحانه وتعالى-، مستوٍ على عرشه، ومع كونه عليًّا، إلا أنه قريب، أقرب إلى أحدنا من عنق راحلته، أقرب إلينا من حبل الوريد، ولا تناقض في ذلك، التناقض يقع في حق المخلوق، لكن الله -سبحانه وتعالى- لا تناقض في حقه، فهو إذًا ليس مختلطًا بالخلق، بل هو بائن عنهم، يعني: منفصل عنهم في جهة العلو.

قال: (فَإِنَّ هَذَا لاَ تُوجِبُهُ اللُّغَةُ)، يعني: يكون معكم ليس معناه الاختلاط، اللغة لا توجب هذا، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق.

لما نقول: هو معكم، لا يلزم منه أنه يكون مختلطًا بالخلق؛ لأن اللغة لا تساعد على هذا، اللغة العربية لا تساعد على هذا، وإجماع السلف من الصحابة والتابعين أيضًا لا يساعد على هذا المعنى الفاسد الذي ظن البعض أنه يستلزم منه [٠٠:٥٣:٤٠]، فلغى عن المولى -سبحانه وتعالى- صفة العلو أو المعية.

وأراد الآن أن يبين فقال: (بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرُ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ)، ما الذي يريد أن يصل إليه شيخ الإسلام؟ يريد أن يبين أن هذا -قضية أنه هو معكم لا يستلزم أن يخالطكم- منتفٍ في حق بعض المخلوقات، أفلا يكون منتفيًا في حق الخالق من باب أولى؟

يقول: هذا القمر آية من آيات الله، من أصغر مخلوقاته، هل القمر من أصغر المخلوقات؟ لا، هو ما قال: أصغر، هو يقول: من أصغر المخلوقات، يقصد إذا جئنا ننظر إلى العوالم الكبرى؛ فالقمر لا شيء مقارنةً بالكرسي، القمر لا شيء مقارنةً بالعرش، القمر لا شيء مقارنةً بكواكب أخرى، واليوم بعد أن تطور العلم نقول: القمر لا شيء مقارنةً بالمجرة التي نحن فيها، مجرة درب التبانة مثلًا، القمر مقارنةً بالمخلوقات الأخرى من أصغر مخلوقات الله -سبحانه وتعالى-، لو قال: أصغر مخلوقات الله؛ لقلنا: لا، هناك ما هو أصغر.

يقول: هذا القمر الذي ليس هو أكبر المخلوقات هو في السماء، ومع ذلك هو مع المسافر، أينما سار المسافر فالقمر معه، هل يقتضي من هذه المعية حصول المخالطة؟ يعني: هل القمر هذا في رحل المسافر على دابته؟ لا، لكنه في ذات الوقت هو معه، فإذا كان هذا في شأن مخلوق كالقمر؛ أفلا يكون في شأن الله من باب أولى؟ الله في العلو المطلق أعلى من القمر، وهو مع المسافر ومع المقيم معيةً لا تقتضي المخالطة.

قال: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِم إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ. وَكُلُّ هَذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ - مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا - حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ)، أما كونه لا يحتاج إلى تحريف فهو على قاعدتنا في باب صفات الله -تعالى-، أننا لا نحرف، ولا نكيف، ولا نمثل، ولا نشبه، ولا نعطل.

ذهب إلى قضية أخرى، وهي أنه يصان عن الظنون الكاذبة، كثير من الدوافع التي دفعت المبتدعة أن ينكروا بعض الصفات أو يعطلوها وقوع الظنون الكاذبة في أذهانهم، فظنوا مثلًا أن إثبات العلو لله -سبحانه وتعالى- يستلزم منه تشبيهه بمخلوقيه، من أي وجه؟ قالوا: من جهة أننا جعلنا لله الجهة، كأننا حصرناه في جهة معينة، إذا قلنا: في العلو؛ معناه أن الدنو خالٍ منه، اليمين خالٍ منه، حصرناه في العلو، وهذا من أبطل الباطل؛ لأن هذا الظن الذي وقع في أذهانكم يمكن أن يتحقق في المخلوق، لكن ليس بالضرورة أن هذا الظن يتحقق في الخالق، الخالق كيفية مختلفة، لا تعرفونها، لذلك قفوا عند حد السمع، إذا أخبركم الله أنه في العلو، ثم جاءتكم الظنون الباطلة أن هذا يستلزم أن يكون له جهة، يستلزم أن يكون جسمًا، يستلزم أن يكون... هذه اللوازم لا تلزم الله -سبحانه وتعالى-، هي لوازم باطلة قامت في أذهانكم؛ لأنكم لم تتأدبوا بالشرع، وليست لوازم صحيحة تلزم الله -تعالى-؛ لأن القوانين التي تحكمكم غير التي تجري من الله -سبحانه وتعالى-، القوانين هذه لا تجري على الله، لكن تجري عليّ أنا وعليك أنت، فكما أن الله ذاته مختلفة عن ذاتك؛ فالله -سبحانه وتعالى- له صفات مختلفة عن صفاتك.

قال: (وَقَد دَّخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ؛ كَمَا جَمَعَ بين ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾ [البقرة: ١٨٦]. الآيَة، وَقَوْلِهِ –صلى الله عليه وسلم– : (إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِّن عُنقِ رَاحِلَتِهِ). وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لاَ يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ).

الثلاث كلمات الأخيرة تلخص ما مضى، (وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ)، الله –سبحانه وتعالى– له العلو والاستواء، ومع ذلك هو قريب من خلقه، أدنى إليهم منهم، أسمع لهم منهم، ألا تتذكرون قول السيدة عائشة في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[المجادلة:١]؟ قالت: ((سبحان من وسع سمعه الأصوات، إنني لفي طرف الحجرة))، وحجرة أمهات المؤمنين لم تكن كبيرة، مع ذلك تقول: لا أسمع، يعني: ما سمعت شكاية خولة بنت الأزور وهي تشتكي زوجها، لكن الله –سبحانه– من فوق سبع سماوات سمع، فالله أقرب إلى أحدنا من عنق راحلته، وأقرب إلينا من حبل الوريد، لذلك قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، والقرآن والسنة مليئان ببيان علو الله –سبحانه وتعالى–، وفي نفس الوقت معيته وقربه، فلا تنافي بينهما؛ لأن الله علي في دنوه، مع كونه عليًّا له العلو المطلق؛ إلا أنه قريب، وقريب في علوه –سبحانه وتعالى–.

ثم بعد ذلك تكلم –رحمه الله تعالى– عن الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وقد تعرضنا لهذه المسألة في مجلس سابق على وجه السرعة، وسنتعرض لها في المجلس القادم بشيء من التفصيل؛ لأن هذه القضية وقعت فيها الفتنة التي عاصرها الإمام أحمد، وهي المعروفة بفتنة القول بخلق القرآن، نتعرض لها –إن شاء الله تعالى– في المجلس القادم.

سأقف إلى هنا، وأريد أن أذكر نفسي وإياكم بما نحن نعيشه في هذه الأيام من هذا الوباء الذي عم وطم، وذاع وشاع وانتشر، ولم يمر علينا في العصر الحادث شيء يشابه مثل هذا الوباء، عُطلت المطارات ومصالح الناس؛ المدارس، والأعمال، وأُغلقت المدن، وأُوقفت حركة الطيران، والمرض ينتشر بسرعة، لذلك ينبغي لأهل الإيمان والدين أن يكون لهم وقفة أخرى غير الوقفات الصحية التوعوية، هذه الوقفة هي وقفة الإنابة والتوبة والاستغفار، وإشاعة روح الإيمان والضراعة، النبي –عليه الصلاة والسلام– لما كسفت الشمس أو كسف القمر؛ قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحدكم ولا لحياته»، ثم هرع –صلى الله عليه وسلم– إلى الصلاة، وأمر الناس بالصلاة –عليه الصلاة والسلام–، ففي المخوفات عادةً ينبغي أن نهرع إلى الذكر والصلاة والعبادة، قال الله –تعالى–: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٦٠]، والله –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:٧٦]، فإحدى ثمرات الأزمات العودة إلى الله –سبحانه وتعالى–.

أما قول الأخت: أُغلقت المساجد، فكيف نتضرع؟ لا، بيوتنا مساجد، جُعلت لنا الأرض مسجدًا وطهورًا، وإذا اجتهد العلماء فرأوا أن إغلاق المساجد وتعطيل الجُمع والجماعات هو الأوفق لاستبقاء حياة الناس؛ فينبغي لنا أن نسمع وأن نطيع.

الملحظ الذي أريد أن أنبه عليه هو ملحظ العودة إلى الله -سبحانه وتعالى- والإنابة، وإشاعة الاستغفار، وتذكير الناس بآيات الله وبآلائه، وتذكيرهم بعظيم قدرته -جل وعلا-، والانخلاع عن المظالم التي يقومون عليها، والإكثار من الصدقات، وقيام الليل، وقراءة القرآن؛ عل الله -سبحانه وتعالى- أن يكشف الغمة عن الأمة.

ونحن في هذا المقام ومجلس من مجالس العلم والذكر نسأل الله -جل وعز- بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبحياته وقيوميته، نسأله -سبحانه وتعالى- أن يرفع البأس واللأواء عن أمة النبي -عليه الصلاة والسلام-.

اللهم أنت الحي الذي لا يموت، والقيوم الذي لا ينام، جل ثناؤك، وعظم سلطانك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، فرّج عن أمة المسلمين، اللهم ارفع عن الداء، اللهم ارفع عنا الوباء، وارفع عنا عضال الداء، ونعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناءً عليك، نستغفرك إنك كنت غفارًا، نستغفرك إنك كنت غفارًا، نستغفرك إنك كنت غفارًا، فأحلل علينا رضوانك، وأنزل علينا عفوك وعافيتك، وعاملنا بلطفك ورحمتك، ولا تعاملنا بغضبك وبسطوتك، فإنه لا قِبل لنا بذلك، إن لم يكن بك علينا غضب فلا نبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لنا.

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناءً عليك، نعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون، والحمد لله رب العالمين.

تم إلقاؤه يوم الأحد ٢٠ رجب ١٤٤١ هـ الموافق ١٥\٣\٢٠٢٠